المقتطف

الجزء الاول من السنة الحادية والعشرون

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٧ الموافق ٢٧ رجب سنة ١٣١٤

السر جوزف لستر

وما الحسب الموروث لا درّ درّهُ بحاسبٍ الاّ بآخرَ يكتسبْ
اذا المورد لم يثمر وان كان شعبةً من المجد اثرٍ عدّهُ الناس في الحطبْ

هذا ما قالهُ ابن الرومي منذ اكثر من الف عام وقد ردّدهُ لسان الحال قبلهُ ولا يزال يردّدهُ دواماً . وكل منصف في العالم يقول كما قال ابن الوردي

قيمة الانسان ما احسنهُ اكثر الانسان منهُ او اقل

وخير الثمار وافضل الاحسان ما نفعت به ابناء نوعك من علم يدفع عنهم المضارّ ويدفي

منهم المنافع او يرفع عن عيونهم غياهب الجهل وينير سبلهم في نيل الحياة . والعلماء الذين سلكوا هذا السبيل احق من الملوك والامراء بتعظيم القدر واعلاء الشان ولا يُبخسون حقهم الا حيث يسود الجهل وتعلو الدنايا

وان من العلماء الذين نفعوا نوع الانسان نفعاً لو قُدِّرت لهُ قيمة مالية لوازنت الجبال ذهباً نفعاً يشترك فيهِ اهل المشارق والمغارب على اختلاف درجاتهم ومراتبهم . نفعاً قلَّل آفات تشوّهُ الاجساد وخفف آلاماً تفتت الاكباد السر جوزف لستر الجراح الانكليزي الشهير صاحب هذه الترجمة . فمن طالع خطبتهُ النفيسة التي ترجمناها ونشرناها في الاجزاء الثلاثة الماضية وقرأ ما نشرناهُ منذ عامين عن عجائب الجراحة رأى اننا لم نبالغ في وصف النفع العميم الذي نفع بهِ نوع الانسان باكتشافهِ اسباب ما يحل بالجروح من الفساد وطرق تلافيها

ولد في قرية يضواي لندن سنة ١٨٢٧ وابوهُ عالم محقق من اعضاء الجمعية الملكية اشتهر باصلاح المكرسكوب حتى لا يحل الالوان ولذلك وضع العلم مع اللبن ان لم يكن قد ورث الميل اليهِ وراثة . ودرس في مدرسة لندن الجامعة فاجيز لهُ سنة ١٨٤٧ وجعل يدرس الطب والف رسالة في انسجة الجلد العضلية قبل ان يتم درسهُ . وعُيِّن لتدريس علم الجراحة في مدرسة ادنبرج الجامعة وكتب في كثير من المواضيع الطبية كتابة تدلُّ على علم راسخ وبحث دقيق فذاع اسمهُ وعُرف فضلهُ فعُيِّن استاذاً للجراحة في مدرسة غلاسكو الجامعة . وانتبه حينئذٍ الى كثرة الوفيات من الذين تُعمل فيهم العمليات الجراحية في المستشفيات فارشدتهُ الحقائق العلمية التي عرفها بالدرس والبحث الى معرفة سبب الفساد الذي يصيب الجروح والى السبيل الذي يتلافى ذلك بهِ

والمشتغلون بالعلوم لا يسيرون بكل بارق ولا ينقادون لكل رأي فطير ولا سيما اذا كانوا قد الفوا بعض الآراء العلمية ودافعوا عنها فاحتدمت نار الجدال بينهم وبينهُ . وهو نفسهُ لم يتقن الاسلوب الذي اشار بهِ دفعةً واحدةً بل تدرَّج الى اتقانهِ تدريجاً وكأنَّ المناظرة والمجادلة شدَّدتا همتهُ وشحذتا عزيمتهُ لمواصل البحث والتنقيب والتمحيص والتحقيق الى ان بلغ الغاية التي تمناها

وانتقل من مدرسة غلاسكو الى مدرسة ايدنبرج ومنها الى مدرسة لندن استاذاً للجراحة وبقي في هذا المنصب الاخير الى عهد قريب

وفي اواسط هذا العام نشرت جريدة ناتشر العلمية ترجمتهُ وكتبت الاستاذ تخص الالماني كتابة القسم العلمي منها فكتب يقول

لقد أُوليت الشرف لاني اخترت لوصف الشهرة العلمية التي حازها السر جوزف لستر فالبيّ الطلب يزيد السرور لاني عرفت الرجل لا لمجرّد شهرته العلمية بل لانهُ صديق مخلص لي . وانا مثل غيري من مريديه الجراحين الالمانيين ذهبتُ الى واضع علم الجراحة الحديث في مستشفى لندن وهناك عرضت ولائي على موطىء قدميه وقلبي طافح بالشكر لهُ . ولقد اقى منذ سنين كثيرة الى مدينة ليبسك ولا انسى ابد الدهر الوليمة التي اولمناها لهُ والاحتفال الذي احتفلناهُ بهِ اساتذةً وتلامذةً كبارًا وصغارًا لان المانيا عرفت فضلهُ قبل انكلترا واعترف الالمانيون بهِ قبل ابناء وطنهِ . فانهُ نبيٌّ في عصرهِ سنَّ للناس سُنَّة جديدة لشفاء الجروح وليس لنبي كرامة في وطنهِ ولا سيما في بداءة نبوَّتهِ

والعمل الخالد الذي عملهُ وهو معالجة الجروح على اسلوبهِ يمنع تطرُّق الفساد اليها اعظم عمل تمَّ في صناعة الجراحة حتى الآن . ومن المسلَّم بهِ ان الجراحة تقدَّمت تقدُّمًا عظيمًا بعد اكتشاف الكلوروفورم والايثر سنة ١٨٤٦ و١٨٤٧ ولكنها بقيت محتاجة الى امر آخر وهو ان تنجح عملياتها نجاحًا اكيدًا . فان الجراحين ضاقوا ذرعًا بجراثيم الفساد التي كانت تخطف العليل من ايديهم وتورده حتفهُ وهم وقوف مغلولو الايدي ينظرون ولا يستطيعون عملاً . ولو استطاعوا ان يمنعوا هذا القدر الالد عن دخول الجروح ويحولوا تلثم من عوادي التهاب ولا صديد لسارت الجراحة في خطة جديدة وعدَت عدوًا حثيثًا نحو الكمال . فجاءت الطريقة لستر وكشفت للجراحين كيفية شفاء الجروح بالمقصد الاول (اي بغير تقيح) وقد كانت هذه الكيفية موضوعًا للبحث والنظر مدة قرون كثيرة والآن نرى كل يوم نتائج هذا الكشف يقلب مفعمة سرورًا ويفرح لم يعرفهُ اسلافنا . لم يستنبط لستر هذا الاستنباط البديع دفعةً واحدةً ولا اوجدهُ كلهُ من العدم ولكن كانت السبل اليهِ قد تمهَّدت باكتشاف كثير من الحقائق العلمية الفسيولوجية والكيماوية والنباتية والعلاجية وكان شلز وشوان وهلمهلتز وفيرشو ودوش وباستور في طليعتهم قد اثبتوا ان الاختمار والفساد مسببان عن الجراثيم الحية .

لم ينتبه العلماء الى هذا الامر الانتباه الواجب ولكن لستر ابان ان فائدتهُ لعلم الجراحة تفوق الوصف وشرع في معالجة الجروح في مستشفى غلاسكو سنة ١٨٦٤ م على الاسلوب الذي لقبهُ بمضاد الفساد لانهُ قصد بهِ ان يمنع كل فساد يحلُّ في الاعضاء المجروحة بانيًا اقوالهُ وافعالهُ على الحقائق العلمية المثبتة . فقال في نفسهِ ان الفساد ليس من الهواء فقط بل من الجراثيم الحية المنتشرة حولنا فهي سبب الالتهاب والصديد . ولم يقتصر غرضهُ على منع الجراثيم الحية عن دخول الجروح بل حاول قتلها اذا كانت فيها بمزيلات العدوى ومنع نموها بآلية واختار

الحامض الكربوليك (الفنيك) لازالة العدوى . ولا يخفى ان الجراحين استعملوا انواعاً مختلفة من مزيلات العدوى قبل ايامهِ وفي جملتها الحامض الكربوليك نفسهُ ولكنَّ لستر هو اول من استعمل مضادات الفساد استعمالاً صناعياً قانونياً . وكان اسلوبهُ في اول الامر ناقصاً من وجوه كثيرة شأن كل اسلوب جديد . واعترض عليهِ كثيرون من وجوه شتى ولكنهُ كان واثقاً بصحة مبدإهِ فجعل يصلحهُ رويداً رويداً وغرضهُ الذي يرمي اليهِ منع الفساد من دخول الجروح بازالتهِ عن كل شيء يتصل بها ولا سيما ايدي الجرَّاح ومساعديهِ وآلاتهم وادواتهم وتنقية الجروح نفسها من الفساد الذي حلَّ بها

ثم فصَّل الكاتب اساليب لستر كلها مما هو مبسوط في كتب الجراحة فلا داعي لذكره هنا . وقال في الختام " لا بدَّ من ان السر جوزف لستر يسرُّ سروراً عظيماً حينما يلتفت ويرى الأعمال التي عملها في حياتهِ ويجد انهُ نال ما تمنَّى . واذا قابلنا علم الجراحة كما كان منذ ثلاثين سنة قبلها غيَّرهُ بما صار اليهِ الآن دهشنا من هذا التغيير العظيم . وقد يتعذَّر علينا تذكُّر الايام الماضية ولكن الذي يعرف تلك الايام بالاختبار لا يستطيع الاَّ ان يعترف بان لستر كان نعمة عظيمة من نعَم الله على نوع الانسان ويجاهر بذلك عن علم اكيد وبهجة فائقة . قبل استعمال طريقة لستر لم يكن الجرَّاح يثق بشفاء الجروح وكانت مساوئ المستشفيات تفوق الوصف وكان الموت يخطف الالوف بواسطة العدوى الجراحيَّة والآن صرنا نستطيع ان نشفي اشد الآفات وعمل اصعب العمليات الجراحيَّة تشفى من غير التهاب ولا صديد ولا حمى . وقد صار لنا الثقة التامة بصناعتنا وصار المرضى يثقون بنا لانهم يعلمون اننا صرنا نشفي الجروح التي تجرحهم بها . وصار الجراحون يفتخرون باعمالهم في كل الاقطار . وقد تحالف الاطباء في كل البلدان على مقاومة الادواء وتخفيف الآلام . ونحن الالمانيين نعترف — وليس في نفوسنا شيء من الغيرة — ان شمس علم الجراحة الحديث اشرقت اولاً في البلاد الانكليزيَّة وفي شخص السر جوزف لستر . الجراحة في الاصل صناعة ولكنها صارت الآن علماً وارتقت في العشرين سنة الاخيرة ارتقاء لا مثيل لهُ والفضل في ذلك للستر . ولم تقتصر على ظاهر الجسم بل تناولت كل عضو من اعضائهِ والفضل في ذلك لهُ ايضاً . واذا كان في هذا العالم خلود فهو الرجل الخالد الاسم لان الجراحة لا تذكر حتى انقضاء الدهر الاَّ ويذكر فيها اسمهُ